آفاق وسياقات
تشرين الأوّل ٢٠٢٤ / العدد ١ – ص. ٧٠-٧٩

لاهوت الجسد انطلاقًا من تعاليم قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني

الخوري
خليل شلفون

كاهن ماروني نال شهادة الدكتوراه في اللّاهوت من جامعة باريس الكاثوليكيّة، وفي علوم التاريخ والعلوم الدينيّة من جامعة السوربون – باريس. شغل منصب عميد كلّيّة العلوم الدينيّة في جامعة الحكمة (٢٠٠١-٢٠١٥) ورئيسًا للجامعة (٢٠١٥-٢٠٢٠). أستاذ محاضر في عدّة كلّيّات لاهوت في لبنان وله مؤلّفات عديدة في اللّاهوت وعلم الأديان. مؤسّس ورئيس معهد الدراسات حول الزواج والعائلة في جامعة الحكمة (٢٠٠٤-٢٠١٢). حاليًّا، متقدّم بين الكهنة في أبرشيّة بيروت ورئيس مكتب الشؤون اللّاهوتية في الأبرشيّة المارونيّة.

خلاصة

ركّز البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني، من خلال تعاليم الأربعاء (١٩٧٩-١٩٨٤)، على التمايز بين الرجل والمرأة ضمن وحدة الطبيعة البشريّة. خلق الله الرجل والمرأة متمايزين ومتساويين ودعاهما للاتّحاد كجسدٍ واحد. لاهوت الجسد يفسِّر قصد الله الخالق: التمايز أساس الاتّحاد الزواجيّ والعائلة، وتمايز الإنسان عن الخليقة يؤكّد كرامته. أعطى المسيح المعنى النهائيّ للجسدانيّة في عطاء الذات للآخر في الزواج وللآخرين في الخدمة والمحبّة لتكوين حضارة الأخاء. الجسد البشريّ مُعَدٌّ للقيامة الأخيرة.

كلمات مفتاحيّة

لاهوت الجسد – التمايز – المساواة بين الرجل والمرأة – عطاء الذات – العائلة – قيامة الجسد.

Résumé

Dans ses enseignements du mercredi (1979-1984), Jean-Paul II développe sa théologie du corps en soulignant la distinction et l'égalité entre l'homme et la femme au sein de l'unité humaine. Il explique l'intention divine de créer deux êtres distincts appelés à s'unir en «une seule chair», fondant ainsi l'union conjugale et la famille. Cette théologie distingue également l'homme de la création, honorant sa dignité unique. Le Christ donne le sens ultime à la corporéité par le don de soi dans le mariage et le service d'amour, créant une civilisation fraternelle. Le corps humain est destiné à la résurrection.

Mots-clés

Théologie du corps – différenciation – égalité entre l'homme et la femme – don de soi – famille – résurrection du corps.

كَرَّسَ البابا يوحنّا بولس الثاني حلقات التعليم المسيحي التي كانت تُقام كُلّ أربعاء (les catéchèses du mercredi)، في روما لنشرِ تعليمه حولَ مَفهومِ «لاهوتِ الجسدِ». وَامتدَّت سلسلة المُحاضرات تلك، من تاريخ ٥ أيلول ١٩٧٩ حتّى شهر تشرينَ الثاني منَ العام ١٩٨٤. فقد أرادَ البابا أن يُحدِّدَ أُسُس «لاهوتِ الجسدِ»، مُتَخَطِّيًا نَظرة المسيحيّين السلبيّة إلى كُلٍّ منَ الجسد والميزة الجنسيّة التي خصَّهُم الله بها[١]. فضلاً عن ذلك، واجَهَ البابا الثورة الجنسيّة والحركة النسائيّة اللتين تُطالبانِ بحصولِ الفردِ على الاستقلاليَّةِ الكاملةِ وَالتمتُّع بِحياةٍ جنسيّةٍ متحرِّرةٍ من الأمومةِ والحَبَلِ. كما أكَّدَ على فكرة المساواةِ الكاملةِ بين الرَجُلِ والمرأة[٢]. وَانطلاقًا مِنَ الكلام الّذي وجَّههُ يسوعُ إلى الفرّيسيّين حَوْلَ موضوعِ الزواج: «أَما قَرأتُمْ أنّ الخالقَ مُنْذُ البَدْءِ جَعَلَهُمْ ذَكَرًا وأنثى» (متّى ١٩: ٣)، أَعْلَنَ قداسةُ البابا يوحنّا بولس الثاني نِيَّتَهُ الرجوعَ مُجَدَّدًا إلى «بَدْءِ» (principe) الحُبِّ بين الرَّجُلِ والمَرأة، أَيْ إلى الحقيقةِ الأصليّةِ (vérité originaire) وإلى الاختباراتِ الّتي تُعَدُّ إنسانيّة بشكلٍ أصيلٍ (authentique)[٣]. وَاستخدَمَ قداستُهُ كلمةَ «البَدْءِ» للإشارةِ، قَبْلَ كُلِّ شيءٍ، إلى الوحيِ المذكورِ في سِفْرِ التكوين الّذي يَكْشِفُ مُخَطَّطَ الخالقِ الأصليّ، أي مخطَّط اللّه الّذي خلقَ الرجُل والمرأة ذكرًا وأُنثى. وجاءَ في سفر التكوين: «خَلَقَهُما ذَكَرًا وأنثى»، وطُبِعَ هذا المُخطَّط في كيانِ كُلٍّ مِنهُما: «فَيَتْرُكَ الرَجُلَ أباهُ وأُمَّهُ ويَتَّحِدَ بامرأَتِهِ، فيصيرَ الاثنان جَسَدًا واحِدًا» (تكوين ٢: ٢٤) «فلا يكونان اثنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ واحدٌ، فما جَمَعَهُ اللهُ لا يفرِّقُهُ الإنسان» (متّى ١٩: ٥-٦). فطابعُ الذكوريّةِ مطبوعٌ في كِيانِ الرجل، كما طُبع طابع الأنثويّةِ في كيانِ المرأةِ. ويُكمِل قداستُهُ: «مُتَّبِعينَ سَرْدَ كتابِ سِفْرِ التكوين، اسْتَنْتَجْنا أنّ الخَلْقَ النهائيَّ للإنسانِ يقومُ في خَلْقِ الوِحْدَةِ لكائنَين. إنّ وِحْدَتَهُما هذه تَدُلُّ قَبْلَ كُلِّ شيءٍ

(١) كان لدى بعض المسيحيّين تيّارٌ روحانيٌّ تطهيريٌّ (spiritualisme puritain) يحتقر الجسد ويرفضه، يؤكّد فقط على الحبّ الروحيّ. كما نجد ذلك عند القدّيس أغسطينوس.

(٢) نذكر هنا ثورة أيّار ١٩٦٨ في فرنسا وكتابات سيمون دو بوفوار (De Beauvoir Simone) الّتي دعت المرأة في كتاباتها إلى عدم الوقوع في فخّ الأمومة والتخلّص من كلّ تبعات الطبيعة المتعلّقة بها، كما دعت إلى فكّ الارتباط ما بين معطيات الطبيعة البيولوجيّة والبيئة الثقافيّة-التربويّة الّتي تعكس القِيَم والثوابت التاريخيّة المتراكمة في حياة المجتمع. كما كان هناك تيّار النوع الجنسيّ التفلّتيّ (libertinisme du genre) الّذي يختزل الجسد بمادّةٍ يسهّل التصرّف بها استحداثًا لأنواع اللذائذ، وينتج من ذلك فرديّةٌ مطلَقة كونها ترفض أن تعترف بالمعاني الجوهريّة للجسد، فلا تدرك أنّ هذا الجسد يوسّط في العلاقات الإنسانيّة بُعدًا تأسيسيًّا للشخص البشريّ. راجع: Peeters M. A., Le gender: une énorme politique et culturelle mondiale, Paris, MAME, 2012.

(٣) تعليم الأربعاء، ١٩٨٥.

على وِحدةِ الطبيعةِ البشريّة؛ وما هو في أساسِ تلك الهويّة الّتي تُحَدِّدُ ذكوريّةَ وأنثويّةَ الإنسانِ المخلوق» (يوحنّا بولس الثاني، تعليم الأربعاء، ١٩٨٥). ويضيفُ قداسَتُهُ، في رسالَتِهِ حول كرامةِ المرأة: «يتوجَّب علينا أن نَتفهّمَ قَصْدَ الله الخالقِ حينَ قَرَّرَ أن يكونَ الكائِنُ البشريُّ، دائمًا وحَتْمًا، امرأةً ورَجُلًا، وأن نُدرِكَ ما يترتّبُ علَى هذا القرارِ من نتائج» (كرامة المرأة، Mulieris dignitatem، عدد ١). وَيُذكر أنَّ الرسالة المشار إليها أعلاه، قد أُصدرت في ١٥ آب ١٩٨٨. وَينطوي فِعلُ خلقِ الإنسانِ، رَجُلًا وامرأةً، على ديناميّةٍ إنسانيّةٍ تَحْمِلُ بذورَ الحُبِّ الإلهيِّ إلى العالمِ، بحيثُ يَتِمُّ التلاقي بينَهما وَتتحقَّق وحدتُهما في إطارِ اختلافِهما. فالإنسانُ يُعَدُّ واحدًا من حيثُ هويّتُه وانعكاس صورةِ الله عليهِ من جهةٍ، ومتمايزٌ، مِن حيثُ علاقَتُه بنَفْسِهِ وبالآخَرِ وبالعالَمِ المخلوقِ من جهةٍ أُخرى. وَالمقصود بكلمة متمايز أنه إمّا ذكر أو أنثى.

فما معنى التمايز[٤] المزدوجِ في الخلق؟ وماذا تعني الوحدةُ المزدوجةُ بالنسبةِ إلى الشخصِ البشريّ ودعوتِهِ، انطلاقًا مِن مفهومِ لاهوتِ الجَسَدِ الّذي طَوَّرَهُ البابا القدّيس؟ فلنتساءل، إذًا: ما هو معنى الجسد بالنسبةِ إلى الشّخصِ البشريّ؟ وما معنى التمايز الجنسيّ في مشروعِ الله الأصليّ؟ وما معنى فداء الجنسِ الإنسانيّ؟ وهل هناك أيضًا إمكانيّةٌ للتفكيرِ في البتوليّةِ لأجْلِ الملكوت؟

الجسدُ في سِرِّ الشخصِ البشريّ

رَفْضُ التمايزِ الجَندريّ

تَطرّقَ البابا فرنسيس، في الإرشادِ الرسوليِّ «فَرَحُ الإنجيل»، إلى موضوعٍ مُهمٍّ نابعٍ من الإيديولوجيّة الّتي تُسَمّى، بشكلٍ عامٍّ، «النوع» أي «الجندر». والمعروف أنَّ إيديولوجيّة الجندر تنفي الفوارِقَ بينَ الرجلِ والمرأةِ والتبادُلَ الطبيعيَّ بينَهُما. إنّها «تَعِدُ بمجتمعٍ ينفي الفوارِقَ في النوع أو في الجنسيّة. فالهويّةُ الجنسيّةُ تُصْبِحُ خيارًا فرديًّا يمكن أن يَتَطَوَّرَ مع الوقت، فإن كانت هناكَ إمكانيّةُ التمييزِ بين الجِنْسِ البيولوجيِّ، الذكوريِّ والأنثويِّ، والدورِ الاجتماعيِّ للجسدِ، لكن لا يمكن الفَصْلُ بينهما» (عدد ٥٦)[٥]. انطلاقًا من مبدأ الحفاظِ

(٤) التمايز الجنسيّ (différence sexuelle) ليس مجرّد تنوّع (diversité) أو تعدّديّة (pluralisme) على مستوى التكوين البيولوجيّ للأجساد، بل هو تبادل يميّز الذاتيّة الجسديّة نفسها في محالة أو متحوّلة إلى هيئة أُخرى تجعل (di-ferre) الوحدة في الجسد ممكنة بطريقة خاصّة بين الرجل والمرأة.

(٥) نحو عام ١٩٧٠، وفي أوساط الحركة النسائيّة الراديكاليّة، في أميركا الشماليّة، بدأ الكلام على مصطلح جديد «الجندر» الّذي بدأ كتعبير عن الدور الاجتماعيّ والحقوق الّتي يجب أن يتمتّع بها كلّ من الرجل والمرأة.

على إنسانيَّتِنا وتَقَبُّلِها واحترامِها كما هي مُنذُ أن خُلقنا، لا بُدَّ لنا من أن نعودَ إلى الثوابتِ الأنتروبولوجيّةِ الّتي طَوَّرها قداسةُ البابا يوحنّا بولس الثاني، كونها تَدعمُ فِكرةَ التمايزِ الجنسيِّ بين الرجلِ والمرأة وَالحفاظِ على المساواةِ الأساسيّةِ الكاملةِ الّتي يُتَمَّمُ بها كُلٌّ مِنْهُما في ظلِّ وحدَتِهِما. فاللهُ لَمْ يَخْلُقْ نِصْفَيْن غَيْرَ كامِلَيْن (androgyne)، كما ادّعى أفلاطون، والتمايزُ الجنسيُّ هو أمرٌ قائمٌ منذُ بَدْءِ الكون.

قَبْلَ أن نتعمّقَ في مدلولِ القولِ الكتابيِّ في سِفْرِ التكوين الذي يَشرح أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ على صورةِ الله كَمِثالِهِ، يَجِبُ علينا أن نتساءلَ: مَن هو الإنسان؟ وما هو معنى جَسَدِهِ في إطارِ طبيعَتِهِ البشريّة؟

التمايزُ بين الإنسانِ والخليقة

يُذكَرُ في مقدّمةِ الكتابِ المقدَّسِ، وتحديدًا في سِفْرِ التكوين، ، أنَّ الإنسانَ قد أَدركَ أَوَّلًا أَنَّهُ ينتمي إلى الجِنْسِ البشريّ (le genre humain)، وَيختلِفُ عن سائرِ المخلوقاتِ الموزَّعةِ على الكَوْنِ انطلاقًا مِنَ العالَمِ النباتيِّ وصولًا إلى العالَمِ الحيوانيّ. فهو ينتمي في الوقتِ عينِهِ، إلى العالَمِ المنظورِ أي المادّيِّ وإلى العالَمِ غيرِ المنظورِ أيّ الروحيّ. «جَبَلَ الربُّ الإلهُ آدمَ ترابيًّا مِنَ الأَرضِ، ونَفَخَ في نَفْسِهِ نَسَمَةَ الحياةِ فصارَ آدمُ نَفْسًا حَيَّةً (تكوين ٢ : ٧). إذًا، يَنتمي الإنسانُ بالجَسَدِ إلى الطبيعةِ، فَهُوَ أرضيٌّ ويتواصلُ مَعها عن طريقِ التبادل المُستمرّ القائم بينهما. وهوَ يسمو بالنفْسِ على المادَّةِ ليبلُغَ المستوى الروحانيَّ للوجود. وَتُشَكِّلُ كلٌّ من المادّةِ والروحِ وحدةً عميقة في الإنسانِ، فهو «أنا» روحيٌّ و«أنا» مادّيٌّ في آنٍ معًا. وبِفَضْلِ هذه الميزةِ التي ترفعُ من شأنِهِ، يَستطيعُ أَنْ يُخضِعَ سائِرَ مخلوقاتِ العالَمِ المنظور: «أَخْضِعوا الأرضَ وتَسلّطوا

ثمّ ما لبث أن تحوّل هذا المصطلح ليطال مفهوم الهويّة الجنسيّة، وذلك بهدف شرعنة الميول الجنسيّة كافّة وعدّها من صلب الطبيعة البشريّة وفي مصاف مفهوم الذكر والأنثى. تقوم هذه الإيديولوجيا على الفصل التامّ ما بين المعطى الفيزيولوجيّ والمعطى الثقافيّ، ولم تتوانَ جوديت باتلر، إحدى رائدات الحركة النسائيّة في أميركا الشماليّة، عن المطالبة بعدم تحديد هويّة جنس الطفل كذكر أو أنثى عند ولادته، بل أن نترك له حرّيّة اختيارها مع بروز ميول لاحقة. وكان هدف هذه الإيديولوجيا تفكيك الهيكل الثقافيّ الراهن، مع ما يحمله من ثوابت وقِيَم تمهّد لقوانين تسمح بإدراج الهويّات الجنسيّة كافّة بحسب ميول الأشخاص الذاتيّة وإعادة توزيع الأدوار الاجتماعيّة على أساس الحرّيّة المطلَقة. شجّعت هذه الإيديولوجيا زواج المثليّين وتحديد النسل والإجهاض، وطالبت بتحرير المرأة من قيود الإنجاب، وبالتبنّي، وبالوسائل الاصطناعيّة للحَمل للمثليّين. راجع: Peeters *M. A., La vocation filiale de la femme: mondialisation et signes des temps,* in: دعوة المرأة في الكنيسة، بكركي، ٢٠١٥.

على سمكِ البحرِ وطيرِ السماءِ وجميعِ الحيوانِ الّذي يَدِبُّ على الأرض» (تكوين ١: ٢٨). «سَلَّطَهُ على أعمالِ يديكَ، وأخضعتَ كُلَّ شيءٍ تحت قدميه» (مزمور ٨: ٥-٧).

وَبالتالي، يُعَدُّ الإنسانُ واحدًا بجسدِهِ وروحِهِ. وهو بوضْعِهِ الجسديِّ، يَجْمَعُ في ذاتِهِ كُلَّ عناصِرِ العالَمِ المادّيّ. إذًا، «لا يجوزُ للإنسانِ أَنْ يَحْتَقِرَ الحياةَ الجسديّةَ بل عليه أَنْ يعامِلَ جَسَدَهُ بالإحسانِ والإكرامِ، لأنّهُ خَليقةُ الله ومُعَدٌّ للقيامةِ في اليومِ الأخير. فَلَيْسَ هو ألعوبةً من ألاعيبِ الوهمِ الكاذبِ الصادرةِ عن الأوضاعِ الطبيعيّةِ والاجتماعيّةِ، بل، بخلافِ ذلك، يَتّصلُ، وبِعُمْقٍ، بالحقيقةِ نَفْسِها» (المجمع الفاتيكانيّ الثاني، فرح ورجاء، عدد ١٤). وَتُعدُّ وحدة الجسدِ والروحِ التي تمتازُ بها طبيعة الإنسانِ وحدة جوهريّة حميميّة ووثيقة: «إنّه الجسدُ البشريُّ بكلِّ حقيقتِهِ الّذي يَمْهُرُهُ واقعُ الشخصِ وكرامتُهُ» (تعليم الأربعاء).

لقد حَدَّدَ البابا يوحنّا بولس الثاني الجسدَ بِسِرِّ الشخص، وعدَّهُ تجلّيًا مرئيًّا لحقيقةٍ غيرِ مرئيّةٍ. وانطلاقًا من مفهومِ هذه الجسدانيّة (corporéité) يستطيعُ الإنسانُ – الشخصُ أَنْ يُعَبِّرَ عن ذاتِهِ، وأَنْ يتواصَلَ مع الآخَرين، وأَنْ يُنشئَ علاقة معهم، وأَنْ يُعطيَ ذاتَهُ ويَسْتَقْبِلَ الآخَر لأنّهُ كائنٌ شخصيٌّ وعلائقيٌّ في آنٍ معًا. مِن هنا، تَبْرُزُ كرامةُ الجسدِ أيضًا، فهو ليس بمُعطًى بيولوجيّ مَحْض، إذ إنّهُ يُعَبِّرُ عن الشخصِ البشريِّ ويُحَقِّقُ وجودهُ. إذًا، يَتْبَعُ الجسدُ الشخصَ، ولكن كَجُزْءٍ أساسيٍّ منه. فالإنسانُ هو كائنٌ بشريٌّ وَشخصيٌّ ينخرطُ في علاقَتِهِ مع الله والآخَرين. إنَّ التحدّيَ الأنتروبولوجيَّ الكبيرَ لعالَمِنا اليوم هو تشييءُ الجسدِ؛ فالجسدُ مُعَرَّضٌ أيضًا للتشييء (chosification) وللتسليعِ، وللتسويقِ، وللتهميشِ، وللشيطنة. فلا عَجَبَ، إذًا، أَنْ يتسبَّب هذا الواقعُ باضطرابِ العلاقاتِ الإنسانيّةِ من العُنفِ ورَفْضِ الآخَر إلى مختلف أنواعِ العنصريّاتِ، والشعورِ بالدونيّةِ، والكَبْتِ، والحرمانِ، والإحباط.

وبالتالي، لا تتمثَّلُ حرّيّةُ الشخصِ في استقلاليّته الكاملةِ عن الطبيعةِ، بل تكونُ الحرّيّةُ متجسِّدةً فيهِ فَتُعَبِّرُ عنهُ بشكلٍ مناسبٍ.

وَقد كَشَفَ المسيحُ في العشاءِ الأخيرِ، عن حقيقة معنى الجسد عندما قالَ: «خُذوا وكُلوا جميعُكُم، هذا هو جسدي الّذي يُعْطى لكم». فالمسيحُ يَسْكُنُ جسديًّا مِلْءَ الألوهةِ (١قولوسي ٢:٩). والتعبيرُ الأفخارستيُّ للمسيحِ يَتَحَقَّقُ تَحْديدًا بِعَطِيَّةِ جَسَدِهِ ودَمِهِ لخلاصِ الإخوةِ، فهو يُعَبِّرُ عن عطاءِ الجسدِ مِن خلالِ جَسَدِهِ هذا ومِنْ أَجْلِ العالَمِ (يوحنّا ٦: ٥١) وتتميمًا لإرادةِ الله الآب. وفي قَولِهِ: «اصْنعوا هذا لذكري»، يكونُ المسيحُ قد أعطانا المعنى النهائيَّ للجسدانيّةِ في عطاءِ الذاتِ، ويَسْتَنْتِجُ مار بولس من هذه الحقيقة: «أَحُثُّكُم أيّها الإخوة

أَنْ تُقَدّموا أجسادَكُم ذبائحَ حيّةً ومقدَّسةً ومُرضيَةً لله وهذه عبادَتُكُم الروحيّة» (روما ١٢ : ١). صَنَعَ اللهُ الجَسدَ ليُعطيَ ذاتَهُ للإنسانِ ويحثّه على عبادَتِهِ، ففي عطاءِ الجسدِ تَتِمُّ عَطيّةُ الشخصِ البشريِّ التي ميَّزه الله بها من سائرِ المخلوقات.

التمايزُ الجنسيُّ وعطيّةُ الجسدِ

«رجلًا وامرأةً خَلَقَهُما على صورَتِهِ كَمِثالِهِ» (تكوين ١ : ٢٦): المساواةُ بين الرَجُلِ والمرأة والتمايزُ بينهما.

تُبَيِّنُ الفُصولُ الثلاثةُ الأولى من سِفْرِ التكوينِ أَنَّ الإنسانَ قد خُلقَ ذكرًا وأُنثى، على صورةِ الله ومثالِهِ. وَيتمتَّعُ الرجلُ والمرأةُ كلاهُما، بِمِلءِ الصورةِ الإلهيّةِ المزروعةِ في الكيانِ البشريِّ، وهي بدورِها التي تُعطيهِما مِلْءَ الكرامة.

وَتنفي الجَسَدانيّةُ، كما حَدَّدَها البابا يوحنّا بولس الثاني، فكرةَ وجود طبيعتَينِ للإنسانِ، أي طبيعةٍ ذكوريّةٍ وطبيعةٍ أنثويّةٍ. فالطبيعةُ الإنسانيّةُ هي طبيعةٌ واحدةٌ، وهي متمايزةٌ جنسيًّا بتمايُزِ الجسدانيّة. وَترفُضُ النظرةُ الجندريّةُ هذا التمايُزَ إذ تعدُّه من رواسِبِ الثقافةِ. أمّا بالنسبة إلى قداسةِ البابا يوحنّا بولس الثاني، فإنَّ الجسدانيّةَ تُعْطي في تمايُزِها، كُلًّا منَ المرأةِ والرجلِ، كيانًا فرديًّا وهويّةً شخصيّةً يتمّ حفرهما خلال خَلْقِهِما على صورةِ الله ومثالِهِ.

التمايُزُ بين الـ«أنا» والـ«أنت»

استنادًا إلى ما سبق، نستنتج أنَّ الكرامةَ الشخصيَّةَ للمرأة والرجل تَنبعُ من الجسدانيّة، كما تتجلّى مساواتُهُما الكامِلةُ الّتي تُعطيهِما إمكانيّةَ الدخولِ في علاقةٍ متبادَلَةٍ، يستطيعُ فيها كُلٌّ مِنهُما أَنْ يعيش اختلافه عَنِ الآخَر؛ إذ يقولُ الرجلُ أنا أمامَ أنتَ آخَر، والمرأةُ تستطيعُ أَنْ تقولَ الأمر ذاتَهُ، ألا وهو أنا آخَر أمام أنتَ آخَر، أي الرجل. وذلك في إطارِ طبيعَتِهِما البشريّةِ المشترَكة (كرامة المرأة، عدد ٦).

منذُ البدءِ، يبدو كلٌّ من الرجلِ والمرأةِ واحدًا في اثْنَيْنِ، وهما مَدعوّانِ إلى أَنْ يَتّحدا فَيَصيرا معًا جسدًا واحدًا: «فيتركُ الرجلُ أباهُ وأُمَّهُ ويلزمُ امرأَتَهُ ويكونانِ كلاهُما جسدًا واحدًا» (متّى ١٩ : ٥). وهذا هو الأمرُ الذي أَكَّد عليهِ المسيحُ، وكأَنَّ النصَّ الكتابيَّ يعني إنشاءَ الزواجِ في إطارِ الخَلْقِ وكأَنَّهُ شَرْطٌ لا غنى عنه لِنَقْلِ الحياةِ إلى الأجيالِ البشريّةِ القادمةِ «انْموا واكْثروا واملأوا الأرضَ وأَخْضِعوها». يقولُ البابا يوحنّا بولس الثاني أَنَّ الإنسانَ هُوَ أيضًا خليقةٌ

مؤهَّلةٌ أَنْ تَعْرِفَ اللهَ وتُحِبَّهُ، وهُوَ مَدْعُوٌّ إلى اختبارِ الحُبِّ من خلالِ الدخولِ في علاقَةٍ صادِقَةٍ معهُ. فَالإنسان هُوَ مَخلوقٌ على صورةِ الله كَمِثالِهِ، وبِوَصْفِهِ خَليقةً عاقلةً وحُرّةً، هو مُؤهَّلٌ لأَنْ يَعْرِفَ اللهَ ويُحِبَّهُ. إنَّ البشريّةَ مَدعوّةٌ إلى تحقيقِ مِلْءِ الصورةِ الإلهيّةِ عَبْرَ التكاملِ مَعَ الإنسانِ المُخْتَلِفِ في إطارِ جَدَلِيَّةِ المساواةِ، والتمايُزِ، والتكاملِ، والوحدةِ. وَمَنْحُ الحياةِ في سِرِّ الزواجِ يَجعلُ الإنسانَ مُشارِكًا في عَمَلِ الخَلْقِ على نَحْوٍ فريدٍ (co-créateur).

التشابُه بين الله – الثالوث والإنسان والتمايز بينَهما

لقد خَلق الله الرجلَ وَالمرأةَ، كما سبقَ وَذكرنا، على صورتِهِ «بالتشبيه»، كَوْنهُ إِلَهًا واحدًا وثالوثًا في آنٍ معًا. وَيُعَدُّ الرجل والمرأة في وحدة حُبٍّ، أي في شَرِكَةٍ مع الآبِ والابنِ والروحِ القدس. ونستنتجُ أنَّ الرجلَ والمرأةَ كليهما مخلوقانِ على صورةِ الله، وهذا يَعني أنّهما مدعوّانِ إلى أن يشتركا في محبَّةِ بعضِهما وَأن يَعكُسا هذه الحالة القائمةَ بينَهما على الله. وبموجَبِ هذه الشركةِ، يتبادلُ الأقانيمُ الثلاثةُ الحبَّ في سرِّ الحياةِ الإلهيّةِ الواحدة. فالله هو مَحبّةٌ في ذاتِهِ بِحَسَبِ (١يوحنّا ٤: ١٦). هكذا، منذ البدء، إنَّ الرجلَ والمرأة مدعوّانِ، بالتماثُلِ مع الثالوثِ الأقدسِ، إلى أن يعيشَ كُلٌّ منهما للآخَرِ ضِمْنَ الشَرِكَةِ القائمةِ بينهما. ولا تُعدُّ بُنيةُ الحُبِّ ثنائيّةً، إنَّما هي ثالوثيّةٌ: الحبُّ المُعطى، وَالحبُّ المتلّقى، والحبُّ المشترَكُ أو المتبادَلُ وثمرَتُهُ الشراكَةُ والوحدةُ. ويدلُّ غيابُ هذه الثمرةِ على غيابِ الحبِّ ذاتِه. أمّا علاقةُ التكاملِ بين الرجلِ والمرأةِ، فتفصحُ عن ذاتِها أيضًا في مظاهرَ أُخرى مختلفةٍ عن الزواجِ، أي في الصداقةِ، والأخوّةِ الروحيّةِ أيضًا. فبتكاملِ المواهبِ والتعاونِ الحياتيِّ تُحَقِّقُ الإنسانيّةُ ذاتَها تحقيقًا كاملًا. وَبالتالي، نستنتجُ من هذا التشابُهِ بين اتّحادِ الأقانيمِ الإلهيّةِ واتّحادِ أبناءِ الله في الحقِّ والحبِّ، أَنَّ الإنسانَ يَستطيعُ أَنْ يَعْرِفَ الله خالقَهُ الذي يُحبُّهُ (فرح الرجاء، عدد ١٢). إنّ الإنسان هو الخليقةُ الوحيدةُ على الأرضِ الّتي أرادَها اللهُ لذاتِهِ، ولا يُمكنُ أَنْ يُحَقِّقَ مِلْءَ ذاتِهِ تمامًا إلّا بعطاءٍ صادقٍ لذاتِهِ (فرح الرجاء، عدد ٢٤)، وَيُضيفُ البابا يوحنّا بولس الثاني مُفسِّرًا أنَّ هذا العطاءَ للذاتِ، هو عطاءُ الجسدِ والنَّفْسِ للآخَر (تعليم الأربعاء). فالجسدُ هو السرُّ الأساسيُّ للخَلْقِ، والخَلْقُ هو دَعوةٌ إلى عطاءِ الذاتِ للآخَر. فَلُغَةُ الجَسَدِ هي لُغَةُ الحُبِّ والعطاءِ للأشخاص. وَبِتَحْقيقِ الذاتِ، المتساويةِ والمختلفةِ في آنٍ معًا، يَتِمُّ إخلاءُ الذاتينِ الواحدَةِ في سبيلِ الأخرى. نجدُ لهذا الإخلاءِ نموذَجًا في الله نَفْسِهِ بِوَصْفِهِ ثالوثًا وقائمًا في شَرِكَةِ ثلاثةِ أقانيم.

إذًا، يُمكنُ تعريف الجِنْسِ البشريِّ على أنَّهُ إمكانيّةُ شَرِكَةٍ، لا يُخْلَطُ الجِنْسُ فيها بالجِنسِ الآخر ولا تَذوبُ الهويَّتانِ الشخصيّتان (الذكوريّة والأنثويّة) ببعضهما ، إنَّما يتمُّ توجيههما إلى الانفتاحِ وإلى الشَرِكَةِ وإلى الخروجِ مِنَ الذاتِ مِنْ أجْلِ إنشاء علاقة مع الآخَر. وَيكشِفُ الجنسُ البشريُّ للشَّخص أنّ الإنسانَ لَمْ يُخْلَقْ لِيكونَ وحيدًا، «فلا يَحْسُنُ أَنْ يكونَ آدمُ وحدَه» (تكوين ٢: ١٨)، بل للقاءِ الآخر. وَيَتَطلَّبُ البُعْدُ الشخصيُّ للجِنْسِ التعبير عن عَطاءٍ حقيقيٍّ للذاتِ في شَرِكَةٍ متبادلة من جهة، وانفتاحٍ على الخصوبة من جهةٍ أخرى. فلا يتحقَّق انفصال عن هذين البُعدَين للجنس. لقد أرادَ اللهُ أَنْ تكونَ الحياةُ، الّتي تولَد في العالَمِ نتيجةً للاتّحادِ الزوجيِّ، تَعبيرًا عن الشَرِكَةِ الّتي مِنْها يأتي أيُّ مخلوقٍ بشريّ. فَالإنسانُ المخلوقُ على صورةِ الله مدعوٌّ أَنْ يَحيا لِغَيْرِهِ أيضًا، وأَنْ يَكونَ عَطيّةً مجّانيّةً للآخَرينَ بِكُلِّ ما أوتِيَ من مواهبِ الروحِ القدس.

وَيُعدُّ الكائنُ البشريُّ كائنًا اجتماعيًّا، لا يستطيعُ أنْ يَحيا ولا أنْ يُحيي مواهِبَهُ إن لَمْ تَكُنْ لَهُ علاقةٌ بالآخَر، وإن لم يُعطِ بصدقٍ ذاتَهُ للآخَر (فرح الرجاء، عدد ٢٤). ويُقصَدُ بالعَطاء، العطاء الكُلِّيّ للآخَر في سرِّ الزواجِ، كما العطاء الكلّي للآخَرينَ في الالتزاماتِ الاجتماعيّةِ شتّى، بهدفِ تكوينِ حضارةِ الآخاءِ البشريّ. وَتَنعْكِسُ كمالاتُ الأشخاصِ البشريّين في الجمالِ والإبداعِ والمحبّةِ وبَذْلِ الذاتِ «شيئًا» و«قُبسًا» مِن كمالِ الله الواحدِ والثالوثِ غيرِ المتناهي.

التمايزُ يقودُ المسيحَ المتجسِّدَ إلى فداءِ الحُبِّ على الصليب

لا يُمكنُ أن يَكتَمِلَ تأمُّلُ البابا يوحنّا بولس الثاني اللاهوتيُّ إلّا إذا تَكلّمَ على حاجَةِ الحُبِّ الإنسانيِّ إلى الفداء. فالحُبُّ يَحْمِلُ علاماتِ اضطرابٍ منذ البدءِ بِسَبَبِ الخَطيئةِ المتأصِّلَةِ في الإنسانِ الّتي تَجرَحُهُ في الداخلِ عندما يواجِهُ رَفْضَ التمايُزِ في أشكالِهِ شتّى. ويَظُنُّ الإنسانُ أنّهُ مُسْتَقِلّ عَنِ الله ويَرْفُضُ تحقيقَ ذاتِهِ كَعَطيّةٍ مجّانيّةٍ مِنَ الله للآخَر، فيتَّجهُ إلى تشييء الأشخاص (transhumanisme)[٦]. يُفسِدُ الإنسانُ صورةَ الله المخلوقةِ فيه بالخطيئةِ، وَيَخسرُ

(٦) Transhumanisme ou libéralisme effréné qui légitime la manipulation génétique, les mères porteuses, la gestation pour autrui, le changement de sexe par opération et tout ce que la science actuelle permet.

هنا يتكلّم الفيلسوف والمفكّر الفرنسيّ Onfrey Michel على إيديولوجيا «الرأسماليّة العالميّة» (capitalisme planétaire) الّتي تجعل من الأشخاص أشياء تباع وتُشترى انطلاقًا ممّا تسمح به العلوم والأبحاث الطبّيّة والبيولوجيّة.

القدرةَ على عطاءِ ذاتِهِ كما على استقبالِ الأخِ مِنَ الجِنْسِ الآخَر كعطيّةٍ له. وَيَنْغَلِقُ الإنسانُ على ذاتِهِ بَدَلًا من أن ينفتحَ على الآخَرِ ويَرْفُضَ دَعْوَتَهُ إلى الشَرِكَةِ والتناغُم مع الآخَر ومع الآخَرين. وَيقودُ كلٌّ من الكبرياء والضعف البشريّ والانغلاقِ على الذاتِ، الإنسانَ إلى الشَرِّ فيُضحي الشَخْصُ الآخَرُ شيئًا يمتلكهُ ويَغفل عن فكرة عَطاءِ الذاتِ للآخَر. وَهكذا، يَتحوّلُ الإنسانُ إلى استغلالِ الآخَر لأجْلِ الذاتِ ولِمُتْعَتِهِ الشخصيّة. ولا تقع المسؤوليَّةُ على المرأةِ وحدَها، بل على الرجل والمرأة معًا! فبالمسيحِ أُعطيت إمكانيّةُ الفداءِ للإنسانيّةِ جمعاء لِتَجِدَ البشريّة، مِن جديدٍ، القدرةَ على العطاءِ والاستقبال.

وَيُظهِرُ لنا المسيحُ قِمَّةَ الحُبِّ الزوجيِّ في العلاقَةِ بالكنيسةِ-عروسِهِ (أفسس ٥: ٢٢-٢٣). هذا هو الوَحيُ الأسمى للحُبِّ والمعنى التشبيهيُّ للتمايُزِ الجنسيِّ. لقد تحقَّقت قِمَّةُ هذا العطاءِ الزوجيِّ الذي قدَّمهُ المسيحُ إلى البشريّةِ على الصليبِ، بذلَ جَسَدَهُ فداءً عن شَرِكَةِ الأشخاصِ بعدَ أن أَمضى حياتَهُ على هذه الأرضِ وهو يُعطي ذاتَهُ للآخَرين. وَيخلقُ هذا العطاء أمانَةً وحُبًّا بينَ الطرفين. وَيُعدُّ يسوعُ المصلوب آدمَ الجديدَ المجروح في جَنْبِهِ ليُخرِجَ حَوّاءَ الجديدةَ، «فَلَيْسَ مِنْ حُبٍّ أَعظمُ مِن هذا أَنْ يَبْذُلَ الإنسانُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِ أحبّائِه» (يوحنّا ١٥: ١٣). لقد تَلقّى الرُسُلُ قُوَّةَ الروحِ القدسِ مِنَ المَصْلوبِ بفضلِ أمانَتِهِم لهذا الحُبِّ والعطاء.

وَيَدُلُّ لاهوتُ الجَسَدِ على الارتباطِ الوثيقِ بين الأفخارستيا والزواجِ، والتكامُلِ بين الرجلِ والمرأة. وَتعدُّ عَطِيَّة المسيحِ لذاتِهِ قبولًا لِكُلِّ البَشَرِ بهدفِ حَمْلِهِمْ إلى الآب. إنَّ يسوعَ هو عطيّة كاملة ومطلَقة بحيثُ يُمْكِنُ أَنْ تُكسَرَ وتُعطى في الأفخارستيا إلى ما لا نهايةٍ. وبالتالي، إنَّ المرأةَ والرجلَ مَدعوّانِ إلى أَنْ يعيشا هذا التمايُزَ الجنسيَّ كعلامةٍ تَشهدُ على حُبِّ المسيحِ-العريسِ وعلى تفاني الكنيسةِ-العروس.

القيامةُ تتخطّى التمايُزَ: الدعوةُ إلى البتوليّة

إنَّ جَسَدَ المسيحِ المُقَدَّم ذبيحةً على الصليبِ قد قامَ مِن بينِ الأمواتِ، وقيامَتُهُ هذه هيَ باكورَةُ قيامةِ الأجساد، بل هي أكثرُ مِن ذلكَ، إذ إنّها مِلْءُ التحقيقِ الشخصيِّ للشخصِ الروحانيِّ بِعَطيّةِ جَسَدٍ روحانيٍّ «ففي القيامةِ لا يزوِّجونَ ولا يتزوَّجونَ بل يُصبحونَ كملائكةِ الله في السماء» (متّى ٢٢: ٣٠). ضِمْنَ هذا البُعدِ الإسكاتولوجيِّ الجديدِ، يتحقَّق المعنى العُرْفِيُّ للجسدِ مِلْءَ التَّحْقيقِ. وَلا تُلْغي البتوليّةُ المُكَرَّسَةُ للرَجُلِ والمرأةِ التمايُزَ الجنسيَّ، بل هي بمثابة فرصة للانفتاح الفريدِ على الله بهدفِ التنعُّمِ بحُبٍّ شامِلٍ ولعطاءٍ أكبرَ للبشريّة. آنئذٍ،

تُصبحُ المرأةُ كالرجلِ هِبَةً من دونِ مقابِلٍ لله – الآب الّذي أَعْلَنَ ذاتَهُ بالمسيح (كرامة المرأة، عدد ٢٠). وَهكذا، يُمكنُنا أَنْ نَتَخَيَّلَ التكامُلَ المتبادَلَ بين البتوليّةِ والزواجِ في حياةِ الكنيسة. تمامًا كما تُعَدُّ البتوليّةُ المثالَ النهائيَّ الّذي يصبو إليهِ كُلُّ حُبٍّ بَشريٍّ، بهدفِ التنعُّمِ بالملكوتِ عن طريقِ الاتّحادِ بالمسيح. فتَتَحَوَّلُ الأبوّةُ إلى أبوّةٍ روحيّةٍ حَقّةٍ، والأمومةُ إلى أمومةٍ روحيّةٍ في إطارٍ أخويٍّ شاملٍ للعائلةِ البشريّة كلّها.

خلاصة: الشراكَةُ ضِمْنَ العائلة

انطلاقًا مِنْ فِكرةِ التمايُزِ بين المرأةِ والرجلِ، أَكَّدَ قداسَةُ البابا يوحنّا بولس الثاني على المساواةِ الكاملةِ بينهما لأنّهما خُلِقا كلاهُما على صورةِ الله ومثالِهِ، كما أنّهما مُنْفَتِحانِ على الحقيقةِ الإلهيّةِ وعلى المحبّةِ في الروحِ القدسِ، وجديرانِ بالإفادةِ منهما. وشدَّدَ على أنَّ كليهما يَسْتَوْعِبانِ حُضورَ الروحِ القدسِ الخلاصيَّ والمُبَرِّرَ في حياتِهما. والجدير بالذكرِ أنَّ المساواةَ بينهما ووحدتهما في المسيحِ أمران لا يُلغيانِ التمايُزَ بينَهما. فإنَّ الروحَ القدسَ، الّذي يَصْنَعُ الوحدةَ على صعيدِ النعمةِ، يُسْهِمُ بالقَدَرِ ذاتِهِ في تَحقيقِ النبوءةِ عَنْ طريقِ الرجلِ والمرأة، وفي تَنَوُّعِ المواهِبِ الّتي يَمُنُّ بها عليهما بروحِهِ القدّوسِ في المعموديّة. في كنيسةِ المسيحِ، يحيا كُلُّ مؤمنٍ بمواهبِهِ، أكان رَجُلًا أو امرأةً، وذلك، مِنْ خلالِ جَسَدِهِ وتمايُزِهِ الجنسيِّ، وَعَبْرَ حياتِهِ الزوجيّةِ أو البتوليّةِ لخلاصِ النفوس. وَتَبقى العائلةُ، بحسب البابا يوحنّا بولس الثاني، خَيْرًا عامًّا للإنسانيّةِ نَسْتَنِدُ إليها مِنْ أَجْلِ اتّحادِ الرجلِ والمرأةِ ضِمْنَ مَنْطِقِ الغيريّةِ والحُبّ. «إنّها خَلِيَّةٌ أساسيّةٌ حَيْثُ يَنْمو الأولادُ ويتعلّمونَ الانخراطَ بالمجتمع. إنّها مَدْعُوّةٌ إلى تعزيزِ الرباطِ الاجتماعيِّ مِنْ خلالِ انفتاحِها على الحياةِ، فَمُسْتَقْبَلُ البشريّةِ يَمُرُّ، ولا شكّ، بالعائلة» (يوحنّا بولس الثاني، وظائف العائلة المسيحيّة، عدد ٨٦). وتنشأُ حضارةُ المحبّةِ في العائلةِ المُشْبَعَةِ بروحِ التضامُنِ والحُبِّ المَجّانيِّ المُلْتَزِم، حَيْثُ تَلْتَقي الأجيالُ بِقَبولٍ وانسجامٍ وسلامٍ.

مصادر ومراجع

– البابا يوحنّا بولس الثاني، **تعاليم يوم الأربعاء**، ١٩٧٩–١٩٨٤.

- Jean Paul II, *Homme et femme il les créa : une spiritualité du corps,* Paris, Cerf, 2004

– البابا يوحنّا بولس الثاني، **كرامة المرأة** (Mulieris dignitatem)، ١٩٨٨.

– البابا يوحنّا بولس الثاني، **رسالة إلى النساء**، ١٩٩٥.